الباب الثاني عشر

تأثير الملاحظة

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

تأثير الملاحظة

الملاحظة لها تأثير ..

تأثير قوي جدًا ..

لقد كان أول من انتبه إلى هذا الأمر هم علماء الفيزياء النووية، بعد تجاربهم الخاصة للكشف عن طبيعة "الإلكترونات"، هل الإلكترونات عبارة عن جسيمات (بمعنى أن الإلكترون الواحد مثل كرة تنس الطاولة)، أم هي عبارة عن موجات (مثل موجات البحر)؟!

لقد وجدوا أن الإلكترونات تتصرف "تلقائيًا" (= يعني بدون ملاحظة من أي مراقب لهذا التصرف أثناء حركة الإلكترونات) كـ"موجات"، ولكن عندما ينظر إليها مراقب ليتابع حركة الإلكترون الواحد منها، فإن مجموعة الإلكترونات كلها تتصرف كـ"جسيمات" !

عند هذه النقطة، ومع تكرار التجربة[٨٥] مرات ومرات، بلغ ذهول العلماء ذروته ..

إن الإلكترون "يتصرف" وفقًا لرقابة الباحثين المشرفين على التجربة !!

فتتأرجح "طبيعة" الإلكترون ويختلف "سلوكه" عندما تتم مراقبته وملاحظته !!

ولك أن تتخيل شيئًا "يكون" وفقًا لمراقبتك ..

فما هي "كينونته" أصلًا؟

(٨٥) هي تجربة (الشق المزدوج)، ويمكن للقارىء الكريم أن يشاهد فيديوهات لها على موقع (يوتيوب) باللغة الإنجليزية، حيث اسم التجربة هو: Double Slit Experiment.

دعنا الآن من البحث في "كينونات" الأشياء ..

فإن الأهمية تكمن في تأثيرات الأشياء وليست في كينوناتها ..

إذًا .. ما هي المدلولات العميقة لمعلومة كهذه على حيوات البشر؟

إذا جلست مع مجموعة متخصصة من خبراء الوعي الإنساني، ليبوحوا لك بأسرار الحياة، فسيخبروك – بناءً على علومهم – بأن الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته، أمامه ٢٥٧ ألف احتمال، يستطيع أن يكون على أحدها وقتما يشاء !

أنت قبل ثلاثة أعوام كان لديك ٢٥٧٠٠٠ احتمال، لتكون في أفضلهم الآن، ولكنك اخترت "الاحتمال" الذي أنت عليه الآن !

أنت الآن لديك ٢٥٧٠٠٠ احتمال، لتختار أحسنهم، حتى تكون عليه !

بعد خمسة أعوام من الآن سيكون لديك أيضًا ٢٥٧٠٠٠ احتمال، لتختار من بينهم ما تريد أن تكون عليه !

إن الأمر يبدو كما لو أن "أحداث الحياة" التي تعيشها مثل "شرائح عرض باوربوينت" تعرض أمامك، وما عليك سوى اختيار أفضل هذه الشرائح، ليتم عرضها على الشاشة الكونية العملاقة لحياتك !![٨٦]

فمن يقوم بـ"مراقبة" هذه الشرائح ليستعرضها، واحدة وراء الأخرى، لينتقي من بينها الأحسن، يستطيع فعليًّا أن يتحكم في ظروفه وحياته !

إن الظروف تخضع لمراقبتنا لها !!

(٨٦) ولمن لا يعرف أو لا يستخدم (باوربوينت)، فإن الأمر أشبه بألبوم الصور الشخصية الخاصة بك، مع الفارق في أن صور هذا الألبوم ترى فيها نفسك في الماضي والحاضر والمستقبل أيضًا، وفي أي ظروف تختارها، وأي حال تحب أن تكون عليه، فهي تتشكل وفقًا لما تريد !

رغم غرابة السطر السابق ..

لكنه حقيقة ..

ولها شواهد عديدة ..

فالإنسان الذي "يرى" نفسه فقيرًا معدمًا، وأنه لا يستطيع تحصيل المال إلا بسؤال الناس، ويقول عن فقره إنها إرادة الله ! .. وكأنه لن يستطيع أن يكون غنيًّا مهما فعل ! .. وكأنه اطلع على الغيب وعرف كيف يدبر الله شؤون خلقه !

مثل هذا الإنسان في حقيقة الأمر لم ينتقِ - من بين ٢٥٧٠٠٠ شريحة عرض - إلا هذه الشريحة ليراقبها، فتظل معروضة على شاشة حياته !

وتظل هذه الأحداث وتلك الظروف هي الموجودة في حياته طالما ظل يراقبها ..

وارتاحت إليها نفسه !

فإذا غيَّر الشريحة المعروضة أمامه، فستتغير ظروفه ..

هكذا .. بكل بساطة ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وكذلك الأمم المتأخرة، تظل على حالها طالما اختارت بـ"وعيها وفكرها الجمعي"، شريحة عرض انهزامها وتأخرها وتبعيتها لغيرها..

وظلت تراقب هذه الشريحة، وارتاحت إليها، ولم تنتقل إلى مراقبة شريحة نصرها وتقدمها وريادته ..

إننا أمام معرفة مذهلة، وسُنة كونية مبهرة..

"يظل حالك على ما هو عليه إلى أن تترك مراقبته إلى مراقبة ما هو أفضل"[٨٧].

ولهذا القانون مدلولات أخرى أكثر عمقًا..

وأكثر خطورة..

فنجد إنسانًا صالحًا، يراه الناس على الخير دائمًا، فهو يرتدى منظارًا لمراقبة هذه الشريحة الرائعة، وتظل شاشة حياته تعرض ما في هذه الشريحة، حتى يخلع هذا الرجل منظار المراقبة، ويراقب الشريحة التي ترتاح إليها نفسه !

فتنكشف نفسه على حقيقتها، وينصدم فيه من عاشره طويلًا !

تمامًا كما قال النبي ﷺ:

"إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة". (حديث صحيح).

ويصدق فيه قول النبي ﷺ:

"فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها .. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها". (حديث صحيح).

وإنسان آخر، يظل مغمورًا خاملًا، إلى أن يحول مراقبته إلى شريحة النشاط والظهور التي ترتاح إليها نفسه، فتلمع اللؤلؤة الكامنة بداخله، وينتشر ضوءها وبريقها على العالم كله..

(٨٧) عبارة من صياغة كاتب السطور.

هكذا تنكشف حقائق الأشياء..

وهكذا تتبدل الأحوال..

نسأل الله السلامة والعافية وحسن الخواتيم في الأمور كلها..

ذلك..

ولعل (نابليون) قد أحاط بهذه المعرفة الخطيرة علمًا، فاستخدمها في السيطرة على الشعوب..يروى بعض المؤرخين أنه لما غزا (مصر) قال لأهلها: "لا تقاوموا، فأنا قدر الله، ولا يجوز أن تعترضوا على قدر الله !"

إنه يريد لشعب مصر أن يراقب "شريحة عرض" واحدة فقط، هي شريحة الذل والهوان والتبعية، حتى ترتاح إليها نفوسهم، ولا يلتفتوا إلى شريحة أخرى يعرفون بها قدرهم ويبصرون فيها قوتهم وعزيمتهم وكفاحهم..فيتمكن بهذا من السيطرة عليهم وعلى بلدهم للأبد..

ذلك ..

والصفة الأساسية في جميع الأشياء هي: الحركة !

كما أثبت العلماء..وليس الجمود..والثبات..

من هذا نعلم أن الفقير الذي يقول هذا قدري أنني فقير..وكذلك الغني الذي يعجب بغناه وأمواله..كلاهما سيزدادان فقرًا ! لأنهما يفترضان الثبات في الحياة المتحركة المتغيرة..فيضادان نواميس الطبيعة ولا يتناغمان معها..

لذلك ..فإن الفقير إذا أراد الغنى، عليه أن يراقب تغير الحياة وينتهز فرصها..ويترك مراقبة شريحة الفقر التي ترتاح إليها نفسه..فيتحول إلى الخير..

وكذلك الغني إذا أراد الزيادة، عليه أن يراقب أيضًا تغير الحياة وينتهز فرصها.. ويترك شريحة الغرور التي ترتاح إليها نفسه..فيتحول إلى الخير والزيادة..

ولنا هنا وقفة، مع ما ذكره عالم الاجتماع العراقي الفذ (د/ علي الوردي) رحمه الله تعالى، في كتابه الماتع (خوارق اللاشعور / أسرار الشخصية الناجحة)، في الباب الثاني منه بعنوان (المنطق الأرسطوطاليسي)، حيث قال:

"فالمفكر القديم قد أخفق في الحياة لأنه يفرض فيها الثبات، ويريد منها أن تستجيب لمقولاته المنطقية الساكنة، بينما هي في الواقع متقلبة، إذ هي تتغير من يوم إلى يوم .. ولا ينجح فيها إذًا إلا ذلك المحنك الذي يرقب تغيرها بعين ثاقبة، وينتهز فرصها المتراكضة انتهازًا عاجلًا". أهـ

ويقول أيضًا بفكره الصائب، الذي ينظر به وراء حجب الزمان والمكان:

"إن المفكر القديم يستعمل أقيسته المنطقية استنادًا على ملاحظات سابقة، غير دارٍ بأن الزمن في تغيُّر، وأن ما صلح أمس قد لا يصلح اليوم أو غدًا..

وحين يصطدم بالتجربة المرة يرجع إلى نفسه خائبًا، فيأخذ بذم الناس وسب الزمن، هذا مع العلم أن لا دخل للناس أو الزمن في فشله..إن فشله آتٍ من سوء تفكيره، حيث هو يؤمن بالسكون، بينما الحياة في حركة متواصلة". أهـ

لهذا..

أشار القرآن الكريم بطرف خفيٍ إلى هذه الأسرار في قول الله سبحانه:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨].

فحتى الجبال الرواسي ليست جامدة..

وإنما متحركة..

والإنسان الواعي هو الذي يفطن إلى هذا الناموس الكوني..

فيراقب أحداث الحياة..

ويتحرك مواكبًا لتغيراتها..

ويرى دائمًا أفضل صورة يستطيع أن يكون عليها..

أفضل صورة يرتاح إليها..

ويراقبها باستمرار..

وينتقل من مراقبة الحسن إلى الأحسن..

ولا ترتاح نفسه إلا بكل خير..

له ولغيره..

من أتقن هذا استحق أن يرتقي في مدارج الكمال والجمال..

أما من يقنع بأسوأ الصور..

ويرتاح إليها..

فيظل يراقب أسوأ شرائح عرض يمكن أن يكون عليها..

فلا يلومن إلا نفسه..

وكما أن أصحاب الغنى والثراء سيسألهم الله عن غناهم وثرائهم..

ماذا فعلوا بأموالهم؟

كذلك الفقراء سيسألهم الله عن فقرهم..

لماذا رضوا أن يكون هذا حالهم؟

والله خبير بأفعال الكل..

رحيم بالكل..

فسبحان الله حين قال في كتابه العزيز:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ١-٦].

فما بين شريحة عرض "أحسن تقويم" وشريحة عرض "أسفل سافلين" يتفاوت الناس..

وتختلف درجاتهم وأحوالهم..

حسب ما يراقبون من شرائح عديدة بينهما..

فالأفضل بالإنسان أن يراقب دائمًا شريحة عرض "أحسن تقويم"..ويكون كما خلقه ربه، وترتاح لهذا نفسه..

فشريحة "أحسن تقويم" هي أفضل شريحة يمكن للإنسان أن يراقبها من بين ٢٥٧ ألف شريحة عرض يحتمل أن يكون على أحدها في أي وقت !

لأن "أحسن تقويم" فيها العلم، والقوة، والحكمة، والبراءة، والفطرة، والنقاء، والصفاء، والارتقاء، والسعادة، والاستمتاع، والغنى، والثراء..

أما "أسفل سافلين" ففيها عكس ما سبق..

والقرار بيد الإنسان..

فإما أن ترتاح نفسه لما خلقه الله عليه من أحسن تقويم..

فيسعد في الدنيا والآخرة..

وإما أن ترتاح نفسه لما دون هذه المرتبة العالية السامية..

فيشقى في الدنيا والآخرة..

والله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما ترتاح إليه أنفسهم..

هذا..

ولا يراقب هذه الشريحة المثلى إلا من آمن أنه يستحق الأفضل كما خلقه ربه..

وعمل كل ما يوصله إلى تحقيق كل ما يراقبه فيها..

وقبل أن نختم هذا الباب، نستكمل هذه الآية الربانية اللطيفة المبهرة:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل: ٨٨].

وشكرًا جزيلًا لك أيها الإلكترون !

لقد علمتنا الكثير من حكمتك الرائعة !

خلاصة الباب:

ملاحظتك لما أنت فيه، يؤثر على ما أنت فيه ! .. إنها ليست مقولة فلسفية، ولكنها حقيقة واقعية اكتشفها علماء الفيزياء ! .. حقيقة حياتية قد تقلب حياتك كلها رأسًا على عقب .. أيًّا كان حالك، ومهما كانت ظروفك، فإنك تستطيع أن تكون أفضل مما أنت عليه .. كل ما عليك هو أن تغير نظرتك للظروف .. اجعل دائمًا نظرتك تلك أكثر ثراءً وغنىً .. بذلك تصير ظروفك من حسن إلى أحسن.

اعلم – أسعدك الله – أن الله قد ترك لك حرية الاختيار..

فاحرص على اختيار الأفضل لنفسك دائمًا.